الفصل السابع

تطور حركة الموالى واتساع سلطانهم وانهيار البلاد

أسفار — مرداويج — البويهيون

كان للأقلام والآراء التى بثها الموالى فى أرجاء الدولة أثر عظيم أنهك جسمها فاستسلمت إلى الدعة والراحة ، وسدرت فى اللهو ومات فيها كل طموح ، وكان من وراء ذلك أن خارت قوى جيوشها وضعفت ثغورها ، فطمع فيها كل طامع ، ونبتت قرون الفتن فى أماكن عديدة ، وتطلع قواد الموالى إلى إعادة عروش آبائهم تارة أخرى . وكان من أشدهم بأساً أسفار الذى دوخ الدولة العباسية ردحاً من الزمن . وكان لأسفار هذا قائد قوى الشكيمة اسمه مرداويج أراد أن ينفرد بالزعامة فشق عصا الطاعة على سيده وألب عليه قواد جيشه ، وفى عاصفة هذا العصيان قتل أسفار فخلا الجو لمرداويج الذى تزعم حركة الموالى العسكرية وزحف بجيشه وتم له الاستيلاء على الرى وطبرستان وبلاد الجبل عام ٣١٩ هـ ، ٩٣١ م ثم طلب من الخليفة المقتدر أن يعترف له فى هذه البلاد فأقطعه إياها على مائة ألف درهم فى كل عام . ولكن مرداويج رجل طامح لم يتركه طموحه أن يقف عند هذا الحد بل دفعه إلى التفكير فى استئصال شأفة العرب ليعيد دولة الأكاسرة . ولذلك أخذ يقلد ملوك الفرس الأقدمين بمظاهرهم ، فلبس التاج المرصع بالجوهر والياقوت ، وصنع له عرشاً من الذهب ، ومجلساً مفضضاً مغطى بالسجاد الموشى ، وصفف حوله الكراسى المذهبة ليجلس عليها عظماء المملكة ، وفكر

فى قتح بغداد وتجديد الإيوان ، وإرجاعه إلى سالف عهده ، وكان يرجو أن يجعل بغداد عاصمة ملكه منها يحكم العالم جميعه ، ولكن خاب ظنه .

كان هذا القائد قاسياً جباراً ينظر إلى الناس نظر من لم يدخل الإيمان قلبه ، فاستبد بهم ، وعامل الرجال والنساء معاملة العبيد . وعرض أهل همدان على السيف كأنهم كفار . فأثر ذلك تأثيراً سيئاً فى الناس فتظاهر الإيرانيون أمام قصر الخليفة وقالوا : لماذا تؤدى ضريبة إلى بيت المال إذا لم تحفظ الدولة المسلمين من عوادى الظالمين .

وذهب وفد من العلماء إلى قائده فى ديئور يحملون القرآن ، فلما وضعه إمامهم بين يديه وسألوه أن يتق الله ويرفع السيف عن رقاب المسلمين ، غضب وأخذته العزة بالإثم فتناول القرآن وضرب به وجه الإمام وأمر أحد جنوده أن يذبحه ففعل .

وكان لمرداويج هذا ما يقرب من ٥٠٫٠٠٠ جندى من الديلم ، ٤٠٠٠ جندى من الترك وكان يقسو أيضا على جنده فلما اشتط يوما من الأيام على جند الترك غضبوا عليه وحفظوها له حتى حانت فرصة فقتلوه وذبحوه فى عام ٣٢٣ هـ ، ٩٣٥ م[1] غير أن ما أخطأه قصد مرداويج أصاب بعضه بنو بويه[2] .

البويهيون

بعث سلطان هذه الأسرة ثلاثة أخوة : هم على والحسن وأحمد أولاد بويه . جاءوا إلى مرداويج فأكرم مثواهم ، وخلع على الحسن وعلى ، ثم ولى عليا بلاد الكرج فلما سار إلى عمله ندم مرداويج على فعلته فأراد أن ينقض عهده ، فحالت دون ذلك الصداقة التى توثقت عراها بين على والصميد (وزير مرداويج) حيث أعلم علياً ما ينويه له صاحبه . فأسرع

---

(١) راجع ١٦ — ٧١ metz (٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٢٩٧

إلى بلاد الكرج فقال الوزير لمرداويج . إن الأمر جاء متأخراً . وخير لنا أن ندعه يبدأ عمله حتى لا يتغير علينا ويشق عصا الطاعة ، وهكذا تمت الحيلة على مرداويج وبدأ نجم بنى بويه يظهر فى الأفق ثم اتسعت الشقة بين الإثنين وتأهب كل منهما لقتال خصمه ، وسار مرداويج وأخوه وشمكير على رأس جيش قوى لمقاتلة خصمهما وكاد التاريخ يكتب صفحة جديدة لولا مؤامرة الأتراك التى خر فيها مرداويج صريعاً .

صفا الجو لآل بويه بعد هذا وشرعوا يضعون الخطط لامتداد السلطان وحدثت عليا نفسه أن يستولى على بغداد ثم على العراق عامة لما عرفه من ضعف سلطان الخليفة والتفكك والانحلال فى قوى الشعب ، ثم صمم على الأمر وجهز أخاه الأصغر أحمد بن بويه بجيش قوى فسار أحمد يقصد بغداد ومر بواسط ففتحها ثم كاتبه قواد بغداد فتقدم إليها ووصلها فى اليوم الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ والخليفة فيها يومئذ المستكفى بالله . فرحب به الخليفة وبايعه أحمد وحلف كل لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة ، بل سماه الخليفة أمير الأمراء ولقبه بلقب معز الدولة فكان هذا اليوم يوم تحول تاريخ الخلافة العربية والسلطة بل يوم الفصل فى مصير الأمة . فقد تمكن بنو بويه من صولجان الحكم وطفقوا يلعبون بالخلفاء لعب الأطفال بالدمية يعينون هذا ويعزلون ذاك واستمر سلطانهم على العراق وإيران مدة غير قليلة نابت البلاد منهم نوائب كان لها أثر عظيم فى كيانها ومستقبلها . ولعل هذه المقتطفات من تاريخ ابن مسكوية والرذراورى وغيرهما تعطيك صورة مصغرة مما آلت إليه الحالة أيام الحكم البويهى وما هو مركز الخلافة فى بغداد أيام بنى بويه .

أمير الأمراء معز الدولة

أحمد بن بويه

توطدت له أكناف المملكة وصار حاكما بأمره وأجرى له الخليفة مراسيم الاحترام جميعها غير أنه اشتط فى حكمه ونقض عهده ولم يمهل الخليفة أياما معدودات . فأرسل إليه رجلين من أعوانه فى شهر جمادى الآخر من عام ٣٣٤ فلما دخلا عليه علا صوتهما بركانة أعجمية ظن الخليفة أنهما يريدان تقبيل يديه فمدهما فجذباه وطرحاه أرضا ووضعا عمامته فى عنقه وجراه إليهما فاضطرب المجلس وشاعت الفوضى . وساق الديلمان الخليفة المستكفى بالله ماشياً إلى دار أمير الأمراء معز الدولة ، فاعتقل فيها ونهبت داره ولم يبق فيها شىء . وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن معز الدولة سمل عينى هذا الخليفة وبايع بالخلافة واحداً من أولاد المقتدر وهو أبو القاسم الفضل وسماه المطيع (١) .

ويحدثنا ابن مسكويه أن الديلم شغبوا فى هذا العام على معز الدولة شغبا قبيحا وكاشفوه بالأسماع « وخرقوا عليه بالسفه الكثير » فضمن اطلاق أموالهم فى مدة ضربها لهم ، فاضطر إلى ضبط الناس ، واستخراج الأموال من غير وجوهها ، فأقطع قواده وخواصه ، وأتراكه ، ضياع السلطان وضياع بنى شيرزاد ، وحق بيت المال فى ضياع الرعية . و . . . وصار أكثر السواد معلقا وزالت أيدى العمال عنه وبقى اليسير منه من المحاول فضمن ، واستغنى عن أكثر الدواوين فبطلت وبطلت أزمتها وجمعت الأعمال كلها فى ديوان واحد (٢) .

---

(١) تجارب الأمم جـ ٢ ص ٨٦ وما بعدها . راجع دائرة المعارف الإسلامية . المقريزى جـ ٤ ص ١٨١ .

(٢) تجارب الأمم جـ ٢ ص ٦٦

ومن ذلك أيضا أنه أقطع أكثر أعمال السواد على حال خرابه ونقصان ارتفاعه وقبل عودته إلى عمارته . وساعده على عمله هذا وزراؤه فسامحوا المقطعين وقبلوا منهم الرشا ، وأخذوا المصانعات فى البعض ، وقبلوا الشفاعات فى البعض ، فحصلت الاقطاعات لهم بعبر متفاوتة فلما أنت السنون وعمرت النواحى وزاد الارتفاع فى بعضها بزيادة الغلات ونقص بعضها بانحطاط الأسعار وذلك أن الوقت الذى أقطع فيه الجند الاقطاعات كان السعر مفرط الغلاء للقحط الذى ذكرناه فتمسك الرابحون بما حصل فى أيديهم من اقطاعاتهم ولم يمكن الاستقصاء عليهم فى العبرة . ورد الخاسرون أقطاعاتهم فعوضوا عنها وتممت لهم نقائصها ، واتسع الخرق حتى صار الرسم جاريا بأن يخرب الجند أقطاعاتهم ثم يردوها ، ويتعاضوا عنها من حيث يختارون ويتوصلون إلى حصول الفضل والفوز بالربح ، وقلدت الاقطاعات المرتجعة من كان غرضه تناول ما يجده فيها ورفع الحساب ببعضه وترك الشروع فى عمارتها ، ثم صار المقطعون يعودون إلى تلك الاقطاعات ، وقد اختلط بعضها ببعض فيستقطعونها بالموجود بعد تناهيها فى الاضمحلال والانحطاط . وكانت الأصول تذوب على مر السنين ودرست العبر القديمة وفسدت المشارب ، وبطلت المصالح ، وأتت الجوائح على الفناء ، ورقت أحوالهم فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف ، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره ويوافقه . فبطلت العمارات وأغلقت الدواوين وأمحى أثر الكتابة والعمالة ومات من كان يحسنها ونشأ قوم لا يعرفونها ومتى تولى أحدهم شيئاً كان فيه دخيلا متجلفا . واقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بظلمانهم ووكلائهم فلا يضبطون ما يجرى على أيديهم ولا يهتدون إلى وجه تثمير ومصلحة ، ويقطعون أموالهم بضروب الإفساد . واعتاض أصحابهم مما يذهب من أموالهم بمصادرتهم . وبالحيف على معامليهم وانصرف عمال المصالح عنها لخروج الأعمال عن يد السلطان

(الخليفة) ووقع الاقتصار فى عملها على أن يقدر ما يحتاج إليه ، ويقسط على المقطعين تقسيطات يتقاعدون بها وبأدائها ، وان أدوها وقعت الخيانة فيها فلم تنصرف إلى وجوهها وقل حفل الناظرين بالحوادث تعويلا على أخذ ما صفا وترك ما كدر والرجوع على السلطان بالمطالبة ورد ماتخرب على أيديهم من الاقطاعات ، وفوض تدبير كل ناحية إلى بعض الوجوه من خواص الديلم ، فاتخذه سكنا وطعمة والتحف عليهم المتصرفون الخونة وصار غرض أحدهم الترجية والتشية والدفع من سنة إلى سنة وعقدت النواحى الخارجة عن الاقطاعات على طبقتين من الناس أحدهما أكابر القواد والجند ، والأخرى أصحاب الدراريع والمتصرفون ، فأما القواد فإنهم حرصوا على جمع الأموال وحيازة الأرباح ودعوى المظالم والتماس الحطائط ، فإن استقصى عليهم صاروا أعداءهم ، ولما كثرت أموالهم وانفتقت بهم الفتوق خرج منهم الخوارج ، وإن سوهموا استشرى طمعهم ولم يقفوا منه عند غاية .

أما أصحاب الدراريع فكانوا أهدى من الجند إلى تفريم السلطان والحيلة عليه فى كسب الأموال ونظر بعضهم إلى بعض فيما تجرى عليه معاملاتهم وبذلوا المرافق واعتصموا بالوسائل ووجب أن يجمع الناس حكم واحد . وتوالت السنون عليهم فتفردوا بنواحيهم وخلو بمعاميلهم فمن مستضعف يصادر ويغير رسمه وتنقص معاملته على قدر حاله وماله ، ومن مانع جانبه فيخف عند الرسوم ويرتفق على ذلك منه بالأموال ويتخذه الضامن عضداً فى شدائده وعند مناظرة سلطانه ، ويصطلم المستضعفين ، فبطل أن ترفع إلى الدواوين جماعة ، أو تعمل لعمل مؤامرة ، أو يسمع لأحد ظلامة ، أو يقبل من كاتب نصيحة ، واقتصد فى محاسبة الضعفاء على ذكر أصول العقد وما صح منه وما بقى من غير تفتيش عما عوملت به الرعية وأجريت عليه أحوالها من جور أو نصفة

من غير أشراف على احتراس من الخراب أو خراب يعاد إلى العمارة ، وجبايات تحدث على غير رسم ، ومصادرات ترفع على محض الظلم ، واضافات إلى الارتفاعات ليست بعبرة وحسبانات فى النفقات لا حقيقة لشىء منها ، ومتى تكلم كاتب من الكتاب فى شىء من ذلك وكان ذا حال ضمن ونكب واجتيح وقتل وباعه السلطان بالتطفيف ، وإن كان ذا فاقة وخلة أرضى باليسير فانقلب وصار عونا للخصم ولم يكن بذلك بملوم لأن سلطانه لا يحميه إذا خاف ولا ينصره إذا قال .

فهذه جملة الحال فى ضياع الدخل . فأما الخراج ، فإن النفقات تضاعفت وسوق الدواوين أزيلت . والأزمة بطلت إلى غير ذلك من أمور يتسع فيها القول ويقتضى بعضها سياقة بعض فاقتصرنا على الاشارة .

ثم ركب معز الدولة الهوى فى أمور غلمانه فتوسع فى اقطاعاتهم وزياداتهم ، وأسرف فى تمويلهم ، فتعذر عليه أن يدخر ذخيرة لنوائبه أو أن يستفضل شيئا من ارتفاع ولم تزل مؤنته تزيد وموارده تنقص حتى حصل عليه عجز لم يكن واقفا على حد منه ، بل يتضاعف تضاعفا متفاقماً وأدى ذلك على مر السنين إلى الاخلال بالديلم فيما يستحقون من أموالهم . وداخلتهم المنافسة للأتراك من أجل حسن أحوالهم . وقادت الضرورة إلى ارتباط الأتراك وزيادة تقريبهم والاستظهار بهم على الديلم ، وبحسب انصراف العناية إلى هؤلاء ووقوع التقصير فى أمور أولئك فسدت البيات وفسد الفريقان ، أما الأتراك فبالطمع والضراوة ، وأما الديلم فبالضر والمسكنة واشرأبوا إلى الفتن وصارت هذه المعاملة لقاحا وسبباً لوقوع ما وقع فيها مما سنذكر جملا منه فى موضعها إنشاء الله (١) .

---

(١) تجارب الأمم ص ١٠٠ .

هذه جملة الحال آثرت نقلها وعرضها لأننى وجدت أى تلخيص أو إيجاز يخل إخلالا بينا فى إعطاء هذه الصورة الواضحة المبينة للحال التى كان عليها الزمن أيام معز الدولة الذى نقض العهد وملك زمام السلطان بيده .

ولقد كان هذا المعز قويا خشنا قاسيا وثب على الخليفة ولم يرع إلا ولا ذمة وكان إلى جانب ذلك ضعيفا جزوعا إذا اشتد عليه المرض بكى وندب على نفسه ، وكان سريع الغضب ، بذىء اللسان يشتم وجوه الناس ويسب وزراءه إذا أخذه الغضب ، وقد أمر أن يكتب على مساجد بغداد سنة إحدى وخمسين وثلثمائة ما يسب به صحابة رسول الله وكان الناس يحكونها إذا جن الليل[1] وفى سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة عاشر المحرم أمر أن تغلق الأسواق ويقف القصابون عن الذبح ولا يطبخ الطباخون وأن يظهر الناس خارج المدينة وأن يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن بالبلد بالنوائح . وفى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة فى هذا العام نفسه أمر معز الدولة أن يعم السرور باظهار الزينة وأن تضرب الخيام وتعلق السجاجيد وتعرض الأشياء الثمينة ويلعب بالطبول والأبواق وأن تشعل النيران فى مقر صاحب الشرطة وقد ذبحت الذبائح فى الصباح الباكر وذهبت الوفود تزور مقبرة قريش .

بختيار « عز الدولة »

وما آلت إليه الحالة فى أيامه

كان وزراء هذا الأمير همة أحدهم فى تناول شهواته والوصول إلى لذاته ، أما الأمير فقد كان متشاغلا بالصيد واللهو عن جميع مهام

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ١٨١

الملك فخرج إليه أهل بغداد وهو بالكوفة وأنكروا عليه اشتغاله عن مصالح المسلمين[١] .

وأما الخليفة فقد أصبح لا حول له ولا قوة كما يتبين من الرسائل بينه وبين عز الدولة حين كتب إليه الخليفة يطلب منه مالاً يقوم به فى الغزو فأجابه الخليفة المطيع لله : إن الغزو يلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى وإلى تدبير الأموال والرجال ، وأما الآن وليس لى منها إلا القوت القاصر عن كفائى ، وهو فى أيديكم ، وأيدى أصحاب الأطراف ، فما يلزمنى غزو ولا حج ، ولا شىء مما تنظر الأئمة فيه وإنما لكم منى هذا الاسم الذى يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم ، فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار وتركتكم والأمر كله .

وتعددت المراسلات والمخاطبات حتى خرجت إلى طرف من أطراف الوعيد واضطر إلى التزام أربعمائة ألف درهم باع بها ثيابه ، وبعض أنقاض داره وشاع الخبر ببغداد بين الخاص والعام وأبناء الأقطار أن الخليفة صودر ، وكثرت الشائعات[٢] .

وزاد صاحب تاريخ الإسلام[٣] أنهم شددوا على المطيع لله حتى باع قماشه وحمل أربعمائة ألف درهم إلى بختيار ، فأنفقها هذا فى أغراضه وأهمل الغزو ، وشاع فى الألسنة أن الخليفة صودر كما شاع قبله أن القاهر بالله كدى يوم جمعة فانظر إلى تقلبات الدهر .

وعول أبو الفضل « وزير بختيار » فيما يحتاج إليه من مال الجند والاقامات التى تلزم للأتباع والحاشية على مصادرات الرعية والتجار والتأويل عليهم بالمحال ، وابتدأ بأهل الذمة ، ثم ترقى إلى أهل الملة ، فأخذ

---

(١) تجارب جـ ٢ ص ٣٠٢ ، ٣٠٤

(٢) تجارب جـ ٢ ص ٣٠٧

(٣) هامش هذا الجزء نفسه ص ٣٠٨

أموال الشهود ووجوه البلد من أهل الثراء وبث السعاة والغمازين وسماهم العيال ، وأجرى عليهم الأرزاق وكثر الدعاء عليه فى المساجد الجامعة وفى الكنائس والبيع وفى المحافل والمجالس ، وزادت العامة على ماذكرت من حالها فى الاغارة والإقدام على النهب والحرق وأسرفت فى ذلك حتى بطلت الأسواق وانقطعت المعائش وتعذر على أكثر الناس الوصول إلى ماء دجلة حتى شربوا ماء الآبار . وحصلوا فى شبه حصار ، ورام الوزير تسكينهم فتعذر عليه حتى أركب إليهم طائفة من الجيش فواقعوهم وكسروهم ، ونقصت الهيبة أكثر مما كانت عليه وركب أبو الفضل بنفسه لقتال الثائرين وواقعهم فلم يقدر عليهم .

اعتل المطيع بالفالج فدعاه سبكتكين وطلب إليه تسليم الأمر إلى ولده الطائع لله وبرىء من الخلافة ، وخلعها وأشهد على نفسه فى يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة من سنة ثلثمائة وثلاث وستين[1]

عضد الدولة

وأطماع البويهيين فى الخلافة

تمكن عضد الدولة من أخذ زمام الملك بيده بعد الخلاف الطويل الذى نشأ بين أفراد أسرة بنى بويه وبعد ذلك الفساد الذى عم المملكة ، وتوحدت أطراف الملك تحت صولجانه وتحرك فيه طموحه إلى أفق أوسع إذ أصبح يفكر فى ضم لقب الخلافة إلى لقب الإمارة . فدبر أن يقع بينه وبين الطائع لله وصلة بابنته الكبرى ففعل ذلك وعقد العقد ، بحضور هذا الخليفة وبمشهد من أعيان الدولة والقضاة على صداق قدره مائة ألف دينار ، وبنى الأمر فيه أن يرزق ولدا ذكراً منها فيولى العهد وتصير

---

(١) تجارب ج ٢ ص ٣٢٨

الخلافة فى بيت بنى بويه ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة الديلمية[1] . ولكنه قدر فضحكت من تقديره الأقدار وتطورت أمور الدولة وأحوالها إلى ما سنذكره .

بهاء الدولة

وخلع الطائع لله

مشى بهاء الدولة بين جماعة من خواصه إلى الطائع لله فلما وصل إليه وجده جالسا فى الرواق متقلداً سيفه ولما قرب منه قبل الأرض بين يديه وجلس على كرسى . ثم تقدم أصحابه فجذبوا الخليفة بحمائل سيفه من سريره وتكاثر عليه الديلم فلفوه فى كساء وحمل وأصعد إلى دار المملكة فاضطرب حبل الأمن وقدر أكثر الجند أن القبض على بهاء الدولة ، فوقعوا فى النهب وشلح من حضر من الأشراف والعدول و . . .

ولما أنصرف بهاء الدولة إلى داره أظهر أمر الخليفة القادر بالله أبى العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله ، ونادى بشعاره فى البلد وكتب على الطائع كتابا بالخلع وسلم الأمر إلى القادر بالله وشهد الشهود فيه عليه ، وكانت خلافة الطائع سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ، وانحدر إلى حضرة القادر بالله من خواص بهاء الدولة من يهنئه بالخلافة ويصعد فى خدمته إلى مدينة السلام . وشغب الديلم والأتراك ، يطالبون برسم البيعة وبرزوا إلى ظاهر بغداد وترددت الرسل منهم إلى بهاء الدولة ومنعوا من الخطبة للقادر ثم أرضوهم فسكتوا . وحول من دار الخلافة جميع ما فيها حتى الخشب الساج والرخام ثم أبيحت للخاصة والعامة . فقلعت

---

(١) تجارب ج ٢ ص ٤١٤ .

شبابيكها[1] وكانت نهاية الطائع أن حمل إلى القادر فأكرم مثواه وبقى عنده حتى مات . ويقول الرذراورى فأما شرح ما جرت عليه الحال يوم القبض على الطائع فلم نذكره ، إذ لا سياسة فيه فتحكى ولا فضيلة فتروى إلا أبياتا للرضى أبى الحسن الموسوى رحمه الله ، فإنه كان فى جملة من حضر ، فلما أحس بالفتنة أخذ بالحزم وبادر بالخروج من الدار ، وتاوم من تلوم من الأماثل وسلبت ثيابهم وسلم هو فقال :

أعجب لمسكة نفسى بعد ما رميت ... من النوائب بالابكار والعون
ومن نجاتى يوم الدار حين هوى ... غيرى ولم أخل من حزم ينجينى
مرقت منها مروق النجم منكدراً ... وقد تلاقت مصاريع الردى دونى
وكنت أول طلاع ثنيتها ... ومن ورائى شر غير مأمون
من بعد ما كان رب الملك مبتسما ... إلى أدنيه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه ... لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى ... ياقرب ما عاد بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانية ... قد ضل ولاج أبواب السلاطين

انهيـــار بغداد

فى وسط هذه الفوضى وفى هذه الاستهانة بالتقاليد والنظم والشرائع عما بعثته هذه الأسرة ، أخذ نجم عاصمة الخلافة يجنح إلى الأفول وصوح زهر العراق الاقتصادى وتبدلت خضرته الزاهية إلى قاع بلقع ورمال سافية وتحولت أنهار الوادى التى كانت تتدفق بالخير والبركة وتمتد امتداد الشرايين فى جسم الشباب الحى إلى أودية غائرة وعيون مطموسة فأقفرت الجيوب وشاع الفقر وتفككت عرى الأخلاق وفشت الجرائم وتمزقت

---

(١) الرذراورى جـ ٣ ص ٢٠١ — ٢٠٣

أوصال الأمة فى وحدتها الروحية وشاع الانشقاق فى الصفوف بما فشا من مذاهب الاعتزال بالعراق وخراسان وما وراء النهر ، وقويت دعوة الباطنية بأفريقية وبلاد المغرب ، وبثو دعاتهم بأرض مصر ، فاستجاب لهم خلق كبير ، ثم ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وبعثوا بعساكرهم إلى الشام ، فانتشرت الفرق فى عامة بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والكوفة والبصرة وجميع العراق وبلاد خراسان وما وراء النهر مع بلاد الحجاز واليمن والبحرين ، وتطاحنت هذه الفرق طحان الرحى ، وكان أشهر هذه الفرق القدرية والمعتزلة والكرامية والقرامطة والباطنية(١).

ويقول ابن مسكويه : إن سبب انهيار بغداد يعود إلى العصبية وهو أن حزبين كانا يتنازعان السلطان ، بختيار والديلم من جهة وسبكتكين والأتراك من جهة أخرى ، وكل من الفريقين ينتمى إلى مذهب من المذاهب الإسلامية فأدى ذلك إلى صراع كانت نتيجته انهيار عاصمة الخلافة.

هكذا كانت نتيجة ذلك الصراع العنيف التى أوضحنا بواعثه وأشرنا إلى عناصره وبينا مراميه وغاياته . مما كان له بالغ الأثر على هذا الشرق الأوسط فى حضارته وسلطانه .

أصبحت الأمة مثخنة الجراح تنوء بالبدع والفتن والإحن ، وقد تناثرت أطراف تلك الإمبراطورية المترامية تتناهبها الآراء والمؤامرات ويعلو فى آفاقها الشغب وهى تميل إلى الانهيار ركناً بعد ركن تفتك فيها تلك العلل التى أنتجتها تعبئة الموالى فى حركاتهم فيما فصلنا فيه البحث قبلا فقد كانت هذه العلل كمثل دودة الخشب تأكل فى مجتمع هذه الأمة وتنخر فيه ، تنتقل من منطقة إلى أخرى كلما ساعدتها الطبيعة وهيأت لها رطوبة تعبث فى دائرتها .

---

(١) المقريزى ص ١٨٠ — ١٨١

وفى هذه الفترة المضطربة من أيام الخلافة نبطت فى ما وراء النهر قوة جديدة فى قبيلة من قبائل الترك تدعى السلاجقة ، قوى شأنها حين تولى زعامتها طغرل بك الذى التحم بالغزنويين واستولى على بلادهم وكتب بذلك إلى الخليفة القائم بأمر الله طالباً منه أن يقره على ما فعل ويأذن له بالحكم فيما استولى عليه فأجابه الخليفة إلى ما طلب .

نظر الخليفة إلى ما وصلت إليه البلاد من سوء التدبير والتعمير وشهد الفوضى تنتشر والأمن يضطرب والسيد البويهى فيروز خسرو الملقب بالملك الرحيم قد أثقلت كاهله هذه الفوضى المنتشرة فى جميع نواحى الحياة ، وصار لا ينهض بها ولا يقدر على تدبيرها ، حتى أخذ مماليكه من الأتراك يضطهدونه ويضطهدون الخليفة ، فخف طغرل بجيشه ودخل بغداد عام ٤٤٧ هـ ١٠٥٥ م وألقى القبض على الملك الرحيم آخر البويهيين الذين تعاقب منهم على السلطان فى بغداد اثنا عشر رجلا بين ملقب بملك وملقب بسلطان وبذلك انتهت سلطتهم وبدأت سلطة جديدة سلطة السلاجقة . وعلى الرغم من دخول هذه القوة الجديدة فى جسم الخلافة فإنها ظلت فى بدئها ضعيفة لا تقوى على رد عادية ، فالفاطميون[1] فى مصر وشمال أفريقية أعلنوا خلافتهم وصار يخطب بأسمائهم على المنابر فى بغداد ومكة والمدينة وأطراف البلاد ، وكادوا يستولون على العراق . فلما اشتد ساعد السلاجقة أعادوا بعضاً من عزة الخلافة وشرع الخطباء يذكرون اسم الخليفة العباسى على منابر بغداد ، واسترجعوا بلاد الشام من الدولة الفاطمية وطفق سلطان الخلافة يمتد رويداً رويداً حتى وصل مكة والمدينة وبلاد المغرب والأندلس .

ومع ذلك ظلت هذه الفئة التركية الحاكمة تتأرجح بين القوة والضعف والخلافة يهددها الصليبيون الذين ثبتت أقدامهم فى الشام ،

---

(١) انظر ص ٥٧ .

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	٧	تبيم	تميم
١٠	٤	مضانها	مظانها
١٢	١٦	القائدأن	القائدان
١٣	٢٠	سلطة	سطة
١٤	١٧	كؤود لبحوره	لكؤوده وبحوره
٢٠	١٤	فاسط	قاسط
٢٨	١٢	وارت	وارث
٢٩	١٠	وامادناه	وامادتاه
٢٩	١٤	سعد	عمرو بن سعد
٣١	١٠	العلم	العام
٣٣	١٢	إن المؤمنون إخوة	المؤمنون إخوة
٣٩	١٧	مزوجة	زوجة
٤٢	١	كتاب	كتب
٤٣	١٤	الأشراق	الأشراف
٥٦	١٧	وبدأ تماليه	وبدأ المقنع تماليه
٥٨	٢١	اشتد	استند
٥٨	٢١	افادة	أفاده
٥٨	٢١	فهى	فهيأ
٥٩	١٧	ألهو	ألهوا
٧١	١٧	الأفشين	الأفشين
٨٠	١٦	ذريخ	ذريع
١٢٢	١	تقلب	تلقب
١٢٠	١٧	عينية	عيينة
١٥٨	١١	رسالتهم	رسالتهما
١٦٠	١٢	مقصود	معقود
١٦٠	١٨	تخير	تخبر
١٦٣	٦	الجبارة	الجبابرة
١٧٥	١٠	تفاورت	تعاورت
١٧٦	٨	فتا	فتاه
١٧٦	٨	حرة	شرة
٢٠٦	٧	الغوا	الفوا

obeikandl.com

والذين لم يستطع الخليفة دفع عاديتهم ، والموالى الباطنيون المعروفون بالحشاشين ينخرون فى جسم الدولة يغيرون على أطرافها ويستولون على المدن والقلاع إلى أن استيقظت الخلافة العباسية من غفوتها فاستطاع المقتفى لأمر الله أن يستقل بالأمر دونهم ، ثم أتم نعمة الاستقلال من بعده الخليفة الناصر لدين الله حيث قضى على سلطانهم عام ٥٩٠ تماماً جلس هذا الخليفة اليقظ على كرسى الخلافة عام ٥٧٥ فشرع يدبر الملك تدبير الحكيم وأعاد للخلافة مكانتها وهيبتها ، ولما اشتد ساعده شرع يساعد صلاح الدين الأيوبى فى حربه مع الصليبيين وخفف الباطنيون من غلوائهم استجابة لدعوته ، وجددوا على يديه إسلامهم ، وكادت أيام العباسيين الأولى تعود ، لولا أن عين الدهر التى لا ترید لهم ذلك لم تنم فبعثت للعالم الإسلامى مصيبة من مصائب الأيام بشوه دولة للتتار فى أواسط آسيا بقيادة رئيسهم جنكيز خان وأخذوا يزحفون نحو الغرب لغزو البلاد الإسلامية .

وبعد موت الناصر أخذت الخلافة تتأرجح بين القوة والضعف تارة أخرى نتيجة تغلب الموالى والمماليك على سياسة البلاط ، حتى ولى المستعصم أمور الدولة ، فازدادت البلاد اضطراباً وكثرت الفتن وماجت بغداد بالمشعوذين ، ونبطت رءوس الناقمين من الموالى ، وقلت موارد الدولة ، وصرف المستعصم جنده لقلة الموارد واقتصاداً بالنفقات .

فى هذه المحنة التى كانت تضمر بغداد كان المغول يجمعون جيوشهم ويتأهبون للاستيلاء على البلاد الإسلامية وعلى عاصمة الخلافة وهكذا سار هولاكو بجيش لجب لا يبقى ولا يذر ، وقد محى فى طريقه جماعة الباطنيين الاسماعليين الذين أتعبوا الدولة العباسية ، وانهكو قواها ، وتقدم إلى بغداد لتصفية حساب عقيدة التوحيد ، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه الطاعة فأبى أكثر الناس ، عند ذلك صمم هولاكو أن يفتحها عنوة

فاصرها وشدد الحصار عليها ، وجعلت عاصمة العروبة والإسلام تحتضر فخرج المولى مؤيد الدين محمد بن العلقمي وزير بلاط المستعصم بعد حصار بدأ في اليوم الثاني عشر من شهر محرم الحرام وانتهى في اليوم الثامن والعشرين منه لعام ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م وسلم مفاتيح الأبواب لأيد المغول فانحدروا إليها من كل حدب وصوب وأخذت أيديهم تفتك قتلا ونهباً وإحراقاً وقتلوا الخليفة ، واستأصلوا أهل بيته إلا ولده الصغير واعملوا السيف في أبناء العباسيين لا يستثنون امرأة ولا طفلا ولا شيخاً كبيراً .

هكذا تلاشت بغداد العالم وراء الأفق ، وأسدل الستار على قوة الدنيا والدين .

كادت تنتهي القضية العربية عند هذا الحد لولا أن المملوك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ٧٧) علق في ذهنه أنه لا يقوى على حمل أعباء الحكم في هذه الموجة المضطربة من الزمان إلا إذا استعان بسلطة روحية تعينه على تثبيت ملكه ، فدعا أبا القاسم كبير العباسيين الذين قدروا على الإفلات من يد التاتار ، فأقامه خليفة له السلطة الروحية وللظاهر بيبرس السلطة الزمنية . واستمر الخلفاء العباسيون يتمتعون بهذا المظهر حتى فتح السلطان سليم العثماني بلاد الشام وتوجه إلى مصر وغلب المماليك ودخل القاهرة فاتحاً عام ١٥١٧ . وعاد إلى الأستانة ومعه المتوكل آخر خليفة عباسي حيث نزل لسليم عن حق الخلافة كما يزعمون ومنذ ذلك اليوم أخذ آل عثمان يلقبون بالخلفاء ومع أنهم لم يكونوا من قريش فقد أطاعهم العالم الإسلامي الذي أنهكته فتن الأعاجم وحروب الصليبيين ، وبذلك أسدل آخر ستار على القضية العربية وبدأ تاريخ جديد للعالم الإسلامي لم يكن للعرب اليد الأولى فيه كما كانوا قبلا قادة الأمة وحماة العقيدة .